

# قَصْدِيَّةُ اخْتِيَارِ نَعَوَاتِ الْقَوْلِ وَأَثْرُهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى المَعَانِي غَيْرِ الصَّرِيحَةِ فِي الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ

Qur'anic Discourse's Intentional Use of Adjectives to Convey  
Non-Explicit Meanings

م. د. عقيل كريم حسين

كلية الإمام الكاظم (ع) / أقسام واسط

[lecwasitma@alkadhumi-col.edu.iq/](mailto:lecwasitma@alkadhumi-col.edu.iq/)

## المُلخَصُ:

سبب هذا الاختلاف، والقصد من الاتيان بنعت معين دون غيره، فضلاً عن معرفة ما يمنحه من معانٍ غير صريحة للنص، مع محاولة إيجاد المناسبة التي تربط بين النعت المختار وما تضمنته الآية الكريمة التي تذيّلت به، وهذا ما تهدف الدراسة إلى بيانه، مستندة إلى ما سطره المفسرون وجادت به قرائحهم، والمزج بين تلك الآراء للوصول إلى نتائج تقرب من قصد اختيار تلك النعوت دون غيرها، وما يتوارى خلف تلك النعوت من معانٍ يمكن الكشف عنها بواسطة إيجاد المناسبة الجامعة لذلك النعت ومضمون الآية، إذ إنّ معرفة القصد ليست مطلوبةً في هذه الدراسة لذاتها فقط، بل استثمارها في بيان ما تورى من معانٍ أخرى غير ما دلّ عليها ظاهر النصّ، غير غافلة أهمية تعيين المخاطبين، والغرض من الخطاب في سياقه

إنّ الخطاب الذي أخذ بلبّ العرب بالرغم ممّا وصلوا إليه من البيان ما زال يأخذنا معه للتأمل في دقة اختيار ألفاظه، وطرائق نظمها في تراكيب أذهلت كلّ من قرأها واستشعر روعتها، فاستعماله الخاص لألفاظه في سياقها الذي يقتضيها انماز بإحكام ودقة لم يعهدها العرب، وهو ما جعل البون بينه وبين نتاجهم شاسعاً لا يُقارن أبداً، وأصابهم بالذهول والحيرة. وممّا يدعو إلى التأمل والتفكير ملياً للوقوف على قصديّة اختيار الألفاظ ما نُعت فيه المصدر (قولاً)، إذ ورد مصدر الفعل (قال) في الخطاب القرآني متنوعاً بين الإطلاق والتقييد، وجاء مقيداً بالنعوت تارةً وبالإضافة تارةً أخرى، إلا أنّ وروده منعوتاً بنعوت مختلفة شكّل ظاهرةً بها حاجة لفضل تأملٍ وتدقيق نظر؛ لمعرفة

الكلمات المفتاحية: قصدية، نعوت، القول، المعاني، الخطاب القرآني.

الذي اكتفاه؛ لأن إدراك مقاصد أي خطاب لا يمكن إلا بدراسة هذه العناصر وتحليلها، وإيجاد الوشائج الرابطة بينها.

## Qur'anic Discourse's Intentional Use of Adjectives to Convey Non-Explicit Meanings

[lecwasitma@alkadhum-col.edu.iq](mailto:lecwasitma@alkadhum-col.edu.iq)

Dr. Aqeel Karim Hussein / Imam Al-Kadhum College / Wasit Branch

### Abstract

The speech, which resonated deeply with the Arab population, continues to prompt reflection on the precision of its vocabulary and the impressive structure that fascinated readers and produced a sense of grandness. The precision and accuracy exhibited in his specific utilization of words within their respective context, which necessitated their application, was distinguished by a level of proficiency that had not been previously observed among the Arab population. This helped establish the unique distinction. His performance and output were vastly different, surprising, and confusing. The matter that requires careful contemplation and reflection to ascertain the deliberate selection of words in the discourse of the Qur'an

is the usage of the infinitive form described as "saying." This infinitive form of the verb (said) is found in various instances within the Qur'anic discourse, both in absolute and restrictive contexts.

It is also noted that this usage is sometimes limited to modifying adjectives and sometimes occurs with other adjectives. A unique trait of the phenomenon requires careful consideration. To understand the rationale behind the variation in adjective selection and its significance within a given context, it is essential to delve into the implicit meanings conveyed by these adjectives, as well as establish a coherent connection between the chosen adjective and the content encompassed within the noble verse. This study examines commentators' writings and interpretations

and synthesizes their perspectives to understand the purpose behind selecting these adjectives. By revealing these adjectives' hidden meanings, underlying themes can be identified, and the verse can be fully understood. The adjective's broad use and the verse's content are unaffected by intent. Studying should explain a text's implicit

meanings rather than its intrinsic value.

Recognizing the importance of identifying the intended recipients and the discourse's goals in context. One can understand a speech's intentions by examining and identifying these elements and their interrelationships.

Keywords: intentionality, adjectives, saying, meanings, discourse.

نعوت مصدر الفعل (قال)، الذي تكرر وروده منعوتاً بنعوت مختلفة، وقد بُنيت دراستنا هذه على جملة من الأسس المعرفية والمنهجية، لبيان مقاصد اختيار تلك النعوت، محاولين استقصاء ما قدّمه المفسرون القدامى والمحدثون لا سيما المهتمون ببيان مقاصد الخطاب القرآني، والمزاوجة بين تلك الأقوال والرؤى للوصول إلى رؤية تقرب من المعنى المراد، فضلاً عن استخراج معانٍ لا يدلّ عليها ظاهر النصّ، مستفيدين ممّا وفره الدرس اللساني الحديث فيما يخصّ دراسة علم التخاطب، والعناية بعناصر الخطاب جميعها، لتضاف هذه الدراسة إلى الدراسات التي تُعنى بإظهار وجوه الإعجاز البياني لكتاب الله تعالى، فهذا الخطاب الفريد كان وما زال غصاً طرياً، تُكتشف لطائفه، ومواطن الجمال فيه على مرّ العصور، حتى كأنّه لم

#### المقدمة:

إنّ دراسة قَصْدِيَّةِ اخْتِيَارِ الألفاظ في الخطاب القرآنيّ كانت وما زالت محطّ عناية كثير من المشتغلين في تحليل الخطاب القرآنيّ، إلّا أنّ التوسع في تتبع تلك الألفاظ، وعدم حصرها في نوع واحد، جعلنا نغفل الكثير من دقائق هذا الخطاب ولطائفه، وانطلاقاً من مسلمة أنّ كلّ لفظ في الخطاب القرآنيّ له قصده، ويؤدي معنى لا يمكن لأيّ لفظ آخر أن يُعني عنه، إذ إنّ إبدال أيّ لفظ مكان آخر يُذهب بلاغة النصّ ورونقه، ويُغيّب إحياءاته البيانية، وظلاله المعنوية؛ لأنّ ألفاظ القرآن مقترنة بمعانيها، فلا مزية للفظ على المعنى، ولا للمعنى على اللفظ، بل هما مقترنان في أداء مراد الله عزّوجلّ من كلامه، فجاءت هذه الدراسة لإبراز جمال الدقة في انتقاء ألفاظ تنتمي لمجال لغويّ بعينه، تمثلت في

لزاماً على مستخدم اللغة أن يسعى إلى انتخاب أساليبه الخطابية ومقولاته اللغوية التي تساعده في تحقيق مقاصده الكلامية وأغراضه الخطابية بوضوح (بابصيل: ٢٠١٩م: ١٠٣).

إنَّ مصطلح القصدية ليس غريباً عن الدراسات العربية، فله جذره واستعماله العربي، فهو مصدر صناعي للفظ (قصد) بإضافة حرفين (هما: ياء مشددة، بعدها تاء تأنيث مربوطة؛ ليصير بعد زيادة الحرفين اسماً دالاً على معنى مجرد لم يكن يدل عليه قبل الزيادة. وهذا المعنى المجرد الجديد هو مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ (حسن: د.ت: ٣/ ١٨٦). فأصبح مصطلح القصدية له معناه الخاص الذي يفهمه المتلقي حين يطرق سمعه. ولفظ القصد يدل في أحد معانيه على ((إتيان شيءٍ وأمّه، ومن الباب: أقصدته السهم، إذا أصابه فقتل مكانه)) (ابن فارس: ١٩٧٩م: ٥/ ٩٥)، وأصل ((بق ص د}) ومواقعها في كلام العرب الإعتزاز والتوجه والنهوض والنهوض نحو الشيء)) (ابن منظور: د.ت: ٣/ ٣٥٥) فمعنى الإرادة والتوجه نحو شيء ما حاضر في هذا اللفظ، ولعل هذا المعنى هو المراد بمصطلح القصدية عند المحدثين، ومنهم سيرل الذي يرى أنَّ المعنى العلمي للقصدية هو التوجه، لذا قال بأنَّ القصدية ليست

يقرأ من ذي قبل، وما أجمل ما وصفه به سيد البلغاء بقوله: ((بِحَرْ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعَيُونَ لَا يُضْبِهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلٌ لَا يَغْبِضُهَا الْوَارِدُونَ... وَلَا يَشْعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَانِيَهُ)) (نهج البلاغة: ٢٠١٠م: ٢/ ٢٩٢). وقبل الولوج في عرض النصوص المباركة، وما رفته أولو العلم في تفسيرها، لا بد من التعريف ببعض المصطلحات التي يرنكز عليها بحثنا لنعطي صورة واضحة للقارئ عما يريد البحث بيانه، والوصول إليه. أولاً: القصدية:

إنَّ مصطلح القصدية من المصطلحات التي شاعت في الدرس اللساني التداولي الحديث، وأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام المشتغلين في هذا المجال، لا سيما عند علماء فلسفة اللغة الغربيين، الذين جعلوه جوهر العملية التواصلية ولبها، إذ ذهبوا إلى أنه لا يمكن أن يكون هناك خطاب أو نص من دون قصد، حتى جعلوا القصد قسيماً ثالثاً لثنائية الدال والمدلول؛ لذا عدوا ((المفردات المجردة من القصد مجرد لغو؛ لأنَّ القيمة الفعلية للغة تظهر في قصديتها)) (بباني: ٢٠٠٣م: ٢٢)، فهم يرون أنَّ ((غاية المتكلم من عملية التواصل اللساني هي إيصال قصده للمتلقي، كما أنَّ فهم المتلقي للخطاب وتأويله أصبح هو الآخر مرتبطاً بمعرفة مقاصده؛ لذا كان

إنَّ العناية بمقاصد المتكلمين كانت حاضرة عند علمائنا القدامى حتى قَرَأُوا المعنى بالقصد، فهذا أبو هلال العسكري يرى ((أنَّ الْمَعْنَى هُوَ الْقَصْدُ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْقَوْلُ عَلَى وَجْهِ دُونَ وَجْهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ فِي اللَّغَةِ مَا تَعْلُقُ بِهِ الْقَصْدُ)) (العسكري: د.ت: ٣٣)، فأهل العربية ((يشترطون القصد في الدلالة، فما يُفهم من غير قصدٍ من المتكلم لا يكون مدلولاً للفظ عندهم، فإنَّ الدلالة عندهم هي فهم المقصود لا فهم المعنى مطلقاً،...، فظهر أنَّ الدلالة تتوقف على الإرادة مطلقاً، مطابقة كانت أو تضمناً أو التزاماً)) (التهانوي: ١٩٩٦م: ١ / ٧٩٢). ومعرفة معنى الخطاب تتطلب الإحاطة بعناصر الخطاب جميعها، فلا يمكن معرفة المراد منه من دون النظر في السياق العام الذي يكتفه بنوعيه الحالي والمقالي، فضلاً عن تعيين طرفي الخطاب المتكلم، والمتلقي، وكلَّ ما يتعلق بهما. ومن هنا يتوجب على الباحث في قَصْدِيَّةِ اختيار الألفاظ في القرآن الكريم الإحاطة بكلِّ ما يتعلق بالنص المقدس، مستعرضاً ما دَوَّنه المفسرون لا سيما من أثار الوجه البياني على وجوه الإعجاز الأخرى. إنَّ معرفة مقاصد الاختيار في الخطاب القرآني لا يمكن القطع بصحتها أو القول بأنَّها المقصودة دون غيرها، فالخطاب القرآني كما وصفه الإمام الصادق

لغويَّة بالضرورة أو ترتبط بها فقط، بل تشمل الحالات غير اللغوية أيضاً (سيرل: ٢٠٠٩م: ٢٤)، إلا أنَّها في اللغة أظهر، إذ ترتبط الممارسة اللغويَّة بقصد المتكلم، وما يريد إيصاله إلى متلقي خطابيه، ف((لا وجود لأبي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قَصْدِيَّةٍ وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات)) (دولودال: ١٩٩٤: ١٨٣)، وهذا يشير إلى أنَّ منشئ الخطاب هو المسؤول عن اختيار العلامات اللغويَّة المناسبة، وصياغتها وفق القواعد اللغويَّة المتواضع عليها بين أفراد بيئته اللغوية، لإبلاغ المتلقي ما يريد إيصاله إليه من معنى، وعلى المتلقي أن يعتمد على كفاءته التأويليَّة لمعرفة ما يقصده منشئ الخطاب من خطابه؛ لذا فإنَّ ((مدار الأمر ينصبُّ على ما يعني المرسل بخطابه لا ما تعنيه اللغة، حتى لو كان الخطاب واضحاً في لغته؛ لأنَّ معرفة قصد المرسل هو الفيصل في بيان معناه)) (الشهري: ٢٠٠٤م: ١٩٦)؛ لذا جعل أصحاب النظرية القصدية في التواصل معرفة دلالة الخطاب محالاً من دون الرجوع إلى ما يَكُنُه وبنوهِ المتكلمون من مقاصد معقَّدة موجهة نحو مستمعيهم (مقبول: ٢٠١٤م: ينظر: ١١٢٠)

### أولاً: القولُ المعروفُ:

إنَّ أكثرَ النعوتِ التي رافقت المصدر (قولاً) في الخطاب القرآني هو (معروفاً)، فقد تكرر وروده في أربعة مواطنٍ مختلفة، ولعلَّ معرفة قَصْدِيَّةِ اختيارِ هذا النعتِ دون غيره، ودلالة المعروفِ نفسها، بها حاجة إلى طول تأملٍ، وقراءة مستفيضة لمدونات التفسير، فضلاً عن معرفة المشتركات بين النصوص الكريمة التي تذيلت بهذا الوصف، فأول موطن ورد فيه، قوله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۖ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا} البقرة: {٢٣٥} واختلاف أرباب التفسير في المراد من القول المعروف، إلا أنَّهم أجمعوا على أنَّه تعريض بالخطبة، وهو ضد التصريح، جاء في التفسير البسيط (وقوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا} يعني: التعريض بالخطبة كما ذكرنا، ويكون التقدير: قولاً معروفاً في هذا الموضع، وهو التعريض غير التصريح؛ لأن التصريح مزجور عنه، فهو منكر غير معروف. ويجوز أن يكون المعنى: قولاً معروفاً منه الفحوى والمعنى دون التصريح)) (الواحدى: ٣٠٤٥١: ٤ / ٢٧٥). وقد ذكروا صيغاً كثيرة لذلك التعريض اتفقت ألفاظها حيناً واختلفت حيناً آخر، إلا أنَّ فحوى تلك الصيغ

عليه السلام بقوله لجابر: ((إنَّ للقرآنِ بطناً، وللبطنِ بطناً وظهراً، وللظهرِ ظهراً، يا جابرُ وليسَ شيءٌ أبعدُ من عُقُولِ الرِّجَالِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، إنَّ الآيةَ لَيَكُونُ أَوْلُهَا فِي شَيْءٍ وَأَخْرُهَا فِي شَيْءٍ، وَهُوَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهِ)) (الكاشاني: د.ت: ١ / ٢٦). فيبقى تتبع مقاصد الاختيار في إطار الاجتهاد ومحاولة الوصول إلى ما يقرب من مراد الله تعالى من كلامه، امتثالاً لقوله تعالى {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ}، وهو ما يسعى البحث إلى تحقيقه بوساطة بيان مقاصد اختيار نعوت القول في الخطاب القرآني، وإيثارها على غيرها من الألفاظ الأخرى، فضلاً عن بيان أثرها في منح النصِّ دلالات غير دلالاتها الظاهرة، لا يمكن الكشف عنها إلا بمعرفة علَّة اختيار تلك النعوت.

### ثانياً: القول المنعوت:

نقصد بالقول المنعوت ما ورد من مصادر الفعل (قال) منعوتاً بنعت مبيِّنٍ لنوع عامله، وقد ورد القول مصدراً منصوباً على المفعولية المطلقة مبيناً لنوع عامله بوساطة النعت في أربعة عشر موطناً، ولم تتكرر من هذه النعوت إلا (معروفاً) في أربعة مواضع، و(سديداً) في موضعين، و(غير) في موضعين أيضاً، لذا ستكون دراسة تلك المصادر حسب كثرة ورودها وليس حسب ترتيب ورودها في القرآن الكريم.

يُقَرُّهَا الْعَرَفَ وَالذُّوقَ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَى الرَّجُلِ فَعَلَهُ، وَلَا عَلَى الْمَرْأَةِ الْمَعْتَدَةِ، وَيُدْفَعُ الْاِتِّهَامَ عَنْهَا بِعَدَمِ حِفْظِ حَرَمَةِ دَائِرَةِ الزَّوْجِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا يَتَّبِعُ مَنَاسِبَةَ نَعْتِ الْقَوْلِ بِالْمَعْرُوفِ لِمَوْضُوعِ الْآيَةِ، وَقَصْدِيَّةِ اخْتِيَارِهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ نَعْتٍ مِنَ النُّعُوتِ الْمَذْكُورَةِ مَعَ الْقَوْلِ أَنْ تُؤَدِيَ الْغَرَضَ الَّذِي أَدَّتْهُ لَفْظَةً (الْمَعْرُوفِ)، فَضْلاً عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَى ضَرُورَةِ الْاِتِّتِمَامِ بِالْأَدَابِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي طَلْبِ الزَّوْجِ بِشَكْلِ عَامٍ، فَمَا أَبَاحَهُ الشَّرْعُ الْمُقَدَّسُ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَطَّرَ بِأَطْرَ الْأَعْرَافِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَلَامُّ طَبِيعَةَ ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ، وَهَذَا يَنْضَحُ جَلِيًّا قَصْدِيَّةَ اخْتِيَارِ هَذَا اللَّفْظِ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَهَذَا وَجْهٌ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ إِذْ إِنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَإِعْجَازَهُ ((هُوَ وَضْعُ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا فُصُولُ الْكَلَامِ مَوْضِعَهُ الْأَخْصَ الْأَشْكَالَ بِهِ، الَّذِي إِذَا أُبْدِلَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ جَاءَ مِنْهُ: إِمَّا تَبَدُّلَ الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ فُسَادُ الْكَلَامِ، وَإِمَّا ذَهَابَ الرُّونُقِ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ سَقُوطُ الْبَلَاغَةِ)) (الْخَطَابِيُّ: ١٩٧٦م: ٢٩).

وَلِتَأْكِيدِ ضَرُورَةِ الْاِتِّتِمَامِ بِالْأَدَابِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ فِي تَرْبِيَةِ الْمَجْتَمَعِ أَمَرَ تَعَالَى نِسَاءَ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بِأَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ قَوْلًا مَعْرُوفًا؛ لِأَنَّهِنَّ قُدُوةُ النِّسَاءِ، وَمِثْلَهُنَّ الْأَعْلَى، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: لِيَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا

كَانَ وَاحِدًا، إِذْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ قَالَ: ((يَلْفَاها فِيقُول: إِنِّي فِيكَ رَاغِبٌ، وَإِنِّي لِلنِّسَاءِ لَمُكْرِمٌ فَلَا تَسْبِقِينِي بِنَفْسِكِ)) (الْحَوِيزِيُّ: ١٤١٢هـ: ١/٢٣٢).

وَنَقَلَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ((عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: {إِلَّا أَنْ تَقُولُوا، قَوْلًا مَعْرُوفًا} [البقرة: ٢٣٥] قَالَ: يَقُولُ: إِنِّي فِيكَ لِرَاغِبٌ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ نَجْمَعَ)) (الطَّبْرِيُّ: ٢٠٠١م: ٤/٢٨٢).

وَمَقَادِ أَعْلَبُ تِلْكَ الْأَقْوَالُ هُوَ إِظْهَارُ رَغْبَةِ الرَّجُلِ بِالْاِتِّتِمَامِ بِالْمَرْأَةِ الْمَعْتَدَةِ عَلَى أَنْ يَكُونَ إِظْهَارًا مِنْ غَيْرِ رَفْتٍ وَلَا إِفْحَاشٍ فِي الْكَلَامِ، لِيَقْطَعَا عَهْدًا عَلَى أَنْفُسِهِمَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرُهُ، وَلَا يَتَزَوَّجَ مِنْ غَيْرِهَا، وَبِذَلِكَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْمَعْرُوفِ هُنَا مَا اشتهر بين عامة الناس من القول الذي لا يَخْشَى الْحَيَاءَ، وَلَا يُوقِعُ صَاحِبَهُ فِي الْحَرَامِ، وَلَا يُنْكَرُهُ الذُّوقَ وَالْعَرَفَ، فَضْلاً عَمَّا تَحْمِلُهُ دَلَالَةُ لَفْظِ الْمَعْرُوفِ عَلَى الْقَوْلِ اللَّيِّنِ وَالطَّيِّبِ، الَّذِي يَمْتَدُّ تَأْثِيرُهُ إِلَى الْأَفْعَالِ أَيْضًا؛ وَاسْتِعْمَالُ هَذَا اللَّفْظِ بِنَفْسِهِ وَالْأَمْرُ بِهِ لَا يَخْلُو مِنْ مَعَالِجَةِ اجْتِمَاعِيَّةِ دَقِيقَةٍ وَنَاجِعَةٍ؛ إِذْ إِنَّ احْتِرَامَ الْعِلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ السَّابِقَةَ وَحِفْظَ حَرَمَتِهَا مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُرَاعَى وَلَا يُنْتَهَكُ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ لَا بُدَّ مِنْ حِفْظِ حَقِّ الْمَرْأَةِ الْأَرْمَلَةِ فِي تَحْدِيدِ مَصِيرِهَا وَاخْتِيَارِ الزَّوْجِ الْمُنَاسِبِ لَهَا، وَهَذَا مِنَ الْأَمْرَانِ لَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهُمَا إِلَّا بِإِبَاحَةِ خُطْبَةِ الْأَرْمَلَةِ ضَمْنَ الْأَدَابِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} النساء: ٨} فقد ورد الأمر بالقول المعروف في آيتين اختلفت موضوعاتهما، فالأولى تضمنت منع إعطاء اليتامى غير الراشدين أموالهم، والاقتصار على ما يُجنى من أرباحها، والثانية أمرت بإعطاء من ليس من صلب المورث نصيباً من أموالٍ لا حقَّ له فيها في الأصل، وهنا تتجلى المعجزة البيانية لهذا الخطاب العظيم، وتتحير الأبواب أمام دقة هذا الاختيار وإحكامه، ممّا لا يتسنى لبني البشر الاتيان بما يشابهه، فتكرار الأمر بالقول المعروف وبالصيغة نفسها يشير إلى مقاصد عميقة وآثار جليلة، ودلالات مخترنة في طيات ألفاظها، ومعالجات اجتماعية ونفسية تضمنها النصّ المقدّس، وللاستدلال على ذلك لا بُدَّ من استقصاء أقوال المفسرين في المقصود بالمعروف في هذه المواطن، فذهب أغلبهم إلى أنّ المقصود من القول المعروف في الآية الأولى هو الوعد الجميل والقول الذي تسكن إليه الأنفس وتحبّه، جاء في النكت والعيون أنّ {وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (فيه تأويلان: أحدهما: أنّه الوعد بالجميل، وهو قولٌ مجاهدٍ. والثاني: الدعاء له كقوله بَارَكَ اللهُ فِيكَ، وهو قول ابن زيدٍ) (الماوردي: د.ت: ١ / ٤٥٣). وقد بين صاحب البحر المحيط المقصود بالتأويلين في قول الماوردي إذ قال: {وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا

تَخَضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} الأحزاب: ٣٢} والمقصود بالقول المعروف هو أن يكون قولاً (صحيحاً) جميلاً لا يطمع فاجر فيه، وقال أبو إسحاق: أي قلن ما يوجبه الدين والإسلام بغير خضوع فيه، بل بتصريح وبيان (الواحدى: ١٨ / ٢٣٣، والسمعاني: ١٨٤١٨: ينظر: ٤ / ٢٧٩) بعيداً عما يثير الريبة، دفعاً لطمع مَنْ تسول له نفسه الشهوانية أن يُخالط قلبه شيء من الميل اليهن، ولعلّ في هذا الخطاب إشارة إلى الطريقة التي يجب أن تتعامل فيها المرأة إذا خالطت الأجانب، وأنّ تبتعد عن التمتع في القول، وما يثير الشهوة لدى الرجال؛ كي لا تقع المفسدة ويُستساغ الحديث من دون تحرز من الوقوع في الحرام، ليُحافظ على البناء الاجتماعي السليم، وتبقى الحدود محفوظة بين المرأة والرجل، لأنّ تجاوز تلك الحدود ينتج عنه هدم للمنظومة الأخلاقية والقيمية، والخضوع للمفاسد الجنسية، ويؤسس لنوع من البيئات المنحطّة والملوثة. ومن بديع بيان الخطاب القرآني استعماله للفظ (معروف) نعتاً للقول في قوله تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} النساء: ٥، وقوله: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ

مَعْرُوفًا، الْمَعْرُوفُ: مَا تَأَلَّفَهُ النَّفْسُ وَتَأَنَسَ  
إِلَيْهِ وَيَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ  
بِالسُّفَهَاءِ الْمُحْجُورِينَ، فَمِنَ الْمَعْرُوفِ وَعَدُّهُمْ  
الْوَعْدَ الْحَسَنَ بِأَنَّكُمْ إِذَا رَشَدْتُمْ سَلَّمْنَا إِلَيْكُمْ  
أَمْوَالَكُمْ قَالَهُ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ،  
وَمُقَاتِلٌ، وَابْنُ جُرَيْجٍ ... وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ  
النِّسَاءَ وَالْبَنِينَ الْأَصَاغِرَ وَالسُّفَهَاءَ الْأَجَانِبَ،  
فَتَدْعُو لَهُمْ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ، وَحَاطَكُمْ، وَشَبَّهَهُ  
قَالَهُ: ابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الرَّدُّ  
الْجَمِيلُ<sup>(١)</sup> (الْأَنْدَلُسِيُّ: ٥١٨ / ٣).

ولعلَّ القولَ الأوَّلَ أولى لكونه يتناسب مع  
مضمون الآية التي وجَّهت الخطاب إلى  
الأولياء القائمين على أموال اليتامى؛ لأنَّ  
مراعاة الحالة النفسيَّة لليتامى هي الأولى في  
هذا المقام، فهم يشعرون بحالة فراغ عاطفي،  
ونقصان روحي، وعقد نفسيَّة نتيجة فقدانهم  
آباءهم، وهذه الحال تكون عاملاً مؤثراً في  
بناء شخصياتهم، وبلوغهم الرشد العقليَّ  
المعتدَّ به، لذلك تكون الأولوية لإزالة آثار  
ذلك الشعور؛ لمساعدتهم في بناء  
شخصيتهم، وترشيدهم عقلياً، لأنَّ اليتيم به  
حاجة إلى مراعاة مشاعره وأحاسيسه القلبيةَّة  
أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب  
والكسوة، وهذا ما أشار إليه بعض المفسرين  
في بيانهم لعلَّة الأمر<sup>(٢)</sup> (لأنَّ القولَ الجَمِيلَ  
يؤنِّزُ في القلبِ فيزِيلُ السَّفَهَ، أمَّا خِلافُ  
القولِ المَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يَزِيدُ السَّفِيَةَ سَفَهًا

وَنُقْصَانًا<sup>(٣)</sup> (الْرازيُّ: ١٤٢٠ هـ: ٩ / ٤٩٦).  
وفضلاً عن ذلك فإنَّ منع صاحب المال من  
التصرف بماله يشعل في نفسه نار الحقد  
والانتقام، من دون النظر إلى المصلحة التي  
توجب منعه من التصرف؛ لذا أمر تعالى أن  
يقال لهم قولاً تحبِّه أنفسهم، وأنَّ يُبتعدَ عن  
إسماعهم كلاماً تنفر منه النفوس وتكرهه؛  
لأنَّه يُذكي تلك النار، ويشعل شرارة الانتقام،  
وهذا الامر تترتب عليه نتائج اجتماعية  
سيئة، قد تعصف بالعلاقات الأسريَّة، وتقطع  
صلة الارحام وغير ذلك، لذا جعل بعض  
المفسرين أنَّ القول المعروف هو<sup>(٤)</sup> (أنَّه إنَّ  
كَانَ الْمُؤَلَّى عَلَيْهِ صَبِيًّا، فَالْوَلِيُّ يُعْرِفُهُ أَنَّ  
الْمَالَ مَالُهُ وَهُوَ خَازِنٌ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا زَالَ صَبِيًّا  
فَإِنَّهُ يَزِدُّ الْمَالَ إِلَيْهِ، ونظيره هَذِهِ الْآيَةُ قَوْلُهُ:  
{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} مَعْنَاهُ لَا تُعَاشِرْهُ  
بِالنَّسْطِ عَلَيْهِ كَمَا تُعَاشِرُ الْعَبِيدَ ... وَإِنْ كَانَ  
الْمَوْلَى عَلَيْهِ سَفِيًّا وَعَظُهُ وَنَصَحَتُهُ وَحَتُّهُ  
عَلَى الصَّلَاةِ، وَرَعْبَتُهُ فِي تَرْكِ التَّبْدِيرِ  
وَالْإِسْرَافِ، وَعَرَفَهُ أَنَّ عَاقِبَةَ التَّبْدِيرِ الْفَقْرُ  
وَالْإِحْتِيَاجُ إِلَى الْخَلْقِ إِلَى مَا يُسْبِغُهُ هَذَا النَّوَعُ  
مِنَ الْكَلَامِ<sup>(٥)</sup> (الْرازيُّ: ١٤٢٠ هـ: ٩ / ٤٩٧).

ولعلَّ في هذا القول علاجاً ناجعاً لتلك  
المشكلة الاجتماعيَّة التي قد تترشح عن منع  
اليتيم من ماله، فضلاً عن حَتُّه على الجدِّ  
في أسباب الرشد، وفي النصِّ نفسه إشارة  
إلى معنى آخر وهو على الأولياء التزام

والمجتمع قد تفكك النسيج الاجتماعي إن لم تُراعَ كيفية معالجتها.

ثانياً: القول السديدي:

ورد نعت القول ب(السديد) في الخطاب القرآني في موطنين، أولهما جاء بعد الآية الثامنة من سورة النساء التي ختمت بنعت القول بالمعروف كما مرّ، وهذا ما يجعل المتلقي يجيل فكره لمعرفة سبب تغير النعت في هذه الآية، إذ قال تعالى: {وَلِيُخَشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً} النساء: ٩ {والمقصود بالقول السديد عند أغلب المفسرين هو ((الْعَدْلُ وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ)) (ابن عادل: ١٩٩٨م: ٢٠٢/٦، والقرطبي: ١٩٦٤م: ينظر: ٥٢/٥)، والقول الصائب هو الموصل إلى العدالة، ومعرفة قصدية اختيار هذا اللفظ وإثاره على غيره لا بُدَّ من تعيين المعنى بالخطاب، فذكر المفسرون أنَّ الآية في الرَّجُلِ يحضره الموت، أو أنَّها خطابٌ للمريض بحضرة الموت ويريد الوصية للأجانب، وقيل: خطابٌ لمن قرب أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية، أو خطابٌ لأولياء اليتامى (ابن عادل: ١٩٩٨م: ينظر: ٢٠٢/٦)، ولعلَّ الأخير هو الأرجح والأكثر ملاءمة لختام الآية كما سيتبين، إذ إنَّ غاية التشريعات والأحكام الإلهية تحقيق العدالة، ولما كان أولياء اليتامى يصعب

حسن الخلق والقول اللين الطيب مع الأهل والأولاد واليتامى الذين يتولون كفالتهم بشكل عام، وليس مقتصراً على موطن إعطاء المال.

ولأجل إطفاء نار الحسد والغلّ التي قد تذكو في نفوس المحتاجين من أولي القربى واليتامى والمساكين، أمر المورثين أن يجعلوا لهم نصيباً من تلك الأموال، مشفوعاً بالقول المعروف، وعلة الأمر به في هذا الموطن هي أنَّ النصيب الذي سُمِنح لهم خاضع لتقدير المانح لعدم النصِّ على مقدار الإعطاء، فقد يكون قليلاً لا يُقنع أنفس المحتاجين، وهذا القول اللين والجميل يمكن أن يُطيب خواطرهم، ويجعلهم يقنعون بما أعطوا دون أن يداخل أنفسهم شيء من شعور الحسد والبغضاء تجاه الورثة، ولا يخفى ما لهذا الأمر من انعكاسات إيجابية على النسيج الاجتماعي، وتقوية أواصر القرابة الإنسانية بين أولئك الأفراد، وكلّ هذه المعاني التي لا يدلُّ عليها ظاهر النصِّ، ما كان ليُكشف عنها لولا وجود لفظ (المعروف) في ذيل الآية.

مما تقدّم يمكن القول بأنَّ القول المعروف في الآيات التي اشتملت عليه جميعها مثل عاملاً مشتركاً بين مضامينها بالرغم من اختلاف موضوعاتها، فقد مثل معالجة ناجعة لمشاكل اجتماعية ونفسية على مستوى الفرد

وَلَدِي)) (الزَمَخْشَرِيُّ: ١٩٩٨م: ٦ / ٢٠٢). ولا يبعد أن يكون المراد القول والفعل السديدين وليس القول وحده، و(لَوَائِمًا اقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ السَّيِّدِ لِسُهُولَةِ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْسَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقَلُّ مَا يُسَلِّكُ هُوَ الْقَوْلُ السَّيِّدُ)) (الأندلسي: ٥١٤٢٠: ٣ / ٥٣٠)، لذا فلا بُدَّ أن يقترن القول بالفعل في التعامل مع الايتام؛ لتحقيق غاية الأمر الإلهي بالقول السديد، وهنا يتبين جلياً دقة اختيار النعت (سديداً) في هذا الموطن، والقصد من استعماله دون غيره؛ فلا يمكن لأي لفظ آخر أن يحلَّ محله ليناسب موضوع الآية وهدفها، وهذه خصوصية تراكيب وألفاظ الخطاب القرآني، الذي تأخذ كل كلمة فيه بناصية الكلمة الأخرى، كنسج أحكمت ألوان خيوطه لترسم لوحة تسر الناظرين، فإذا انفلت خيط من هنا أو هناك ضاع الرسم واختفت معالمه. فضلاً عن ذلك فقد بان تأثير استعمال (سديداً) جلياً على ترجيح المعنى بالخطاب، إذ المعنى الذي أفاده القول السديد يلائم كون المخاطبين أولياء الأيتام وليس الاحتمالات الأخرى التي ذكرها المفسرون، وهنا تكمن أهمية ملاحظة سياق النص بأكمله، وعدم الاكتفاء بمعينة التركيب المراد ببيان معناه، والوقوف عند حدود الجملة المكونة له.

عليهم أن يحققوا العدالة في التعامل بين أبنائهم وبين اليتامى الذين في وصايتهم، لا سيما في جانب الحنو والرأفة والعطف، لما تفرضه عاطفة الأبوة على الإنسان اتجاه أبنائه، أراد القرآن أن يثير مشاعر العطف والاشفاق عندهم اتجاه الايتام، بمحاكاة ميولهم الغريزية نحو أولادهم؛ لأنَّ الإنسان بطبعه يغفل في كثير من الأحيان أن يتصور أبناءه ايتاماً حتى يتبع الطريقة المثلى في التعامل كما يُحب أن يُعامل أبناؤه إذا كانوا ايتاماً، فجاءت الآية المباركة لتحثهم على مراعاة جانب العدالة في حقهم، وتبعثهم على الحنو على ايتامهم؛ لأنَّ (حَاجَةَ الطُّفْلِ الْيَتِيمِ لَا تَتَحَصَّرُ فِي الطَّعَامِ وَالْكِسَاءِ، بَلْ مُرَاعَاةُ مَشَاعِرِهِمْ وَأَحَاسِيْسِهِمِ الْقَلْبِيَّةُ هِيَ الْأَهْمُ، وَهِيَ ذَاتُ تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ جَدًّا فِي بِنَاءِ مُسْتَقْبَلِهِمْ؛ لِأَنَّ الطُّفْلَ الْيَتِيمَ إِنْسَانًا كَعِيره، يَجِبُ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى غِذَائِهِ اللَّازِمَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَاطِفِيَّةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَحْطَى بِالْحَنُوِّ وَالرَّعَايَةِ كَمَا يَحْطَى بِذَلِكَ أَيُّ طِفْلِ آخَرَ فِي حَضَنِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ)) (الشيرازي: د.ت: ٣٤/٥). لذا يتوجب على الأوصياء أن يكون قولهم سديداً خالياً من كل ما يؤدي اليتيم ويجرح مشاعره، ولعلنا نتلمس هذا المعنى في قول الزمخشري: ((القولُ السَّيِّدُ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ أَنْ لَا يُؤْذُوا الْيَتَامَى وَيُكَلِّمُوهُمْ كَمَا يُكَلِّمُونَ أَوْلَادَهُمْ بِالرَّحِيْبِ وَيُخَاطَبُوهُمْ: يَا بَنِي، وَيَا

٢٩٩، والزَمَخْشَرِيُّ: ١٩٩٨م: ينظر: ٣/  
 (٥٦٣)، فقد اتهموا زوج النبي (زينب بنت  
 جحش) اتهامات باطلة، وخاضوا في حديث  
 ما لهم به من علم، وأكثروا من الحديث في  
 هذا الأمر، حتى وصلت بهم الحال إلى لوم  
 نبيهم، والاعتراض على ما فعله بسبب زواجه  
 من زينب بنت جحش، بعد أن كانت زوجاً  
 لزيد مُتَبَنَاهُ، فجعلوا للشائعات مكاناً بينهم،  
 وقالوا بأنَّ زيدا ابن النبي بالتبني، ولا يجوز  
 التزوج من زوج الابن، مما أتاح للمنافقين مدَّ  
 رقابهم، والخوض في عرض النبي الأعظم،  
 وفي هذا النصِّ إشارة جليلة إلى أنَّ الخوض  
 في حديث من دون علم وبينه منافع للعدالة  
 والصواب، وليس من أخلاق المؤمنين  
 وشيَمِهِم، لا سيما أنَّ الحديث متعلق ببيت  
 أشرف خلق الله تعالى محمد (صلى الله عليه  
 وآله وسلم)، فلا يناسب ذلك النهي إلا الأمر  
 بالقول العادل الصائب، المحكم المنيع،  
 الموافق للحقِّ والواقع، فجاء نعت ذلك القول  
 المأمور به (سديداً)، ليناسب موضوع الآية  
 المباركة، وليضع علاجاً ناجعاً لمرضٍ  
 اجتماعيٍّ خطير، فضلاً عن بعث المخاطبين  
 على القول بالعدل، والقصد إلى الحق في كلِّ  
 باب، وهذا الأمر لا يمكن قصره على ذلك  
 الموطن، أو على المعنيين بالخطاب، بل  
 حمله على العموم أولى.

أما المتأمل لسبب ورود نعت القول ب(سديد)  
 في ذيل قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا  
 اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} {الأحزاب ٧٠}؛ فيجد  
 أنه اللفظ الذي اقتضاه المقام؛ والمناسب  
 للنهي الوارد في الآية التي سبقتها، إذ وردت  
 هذه الآية عقيب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ  
 مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}، فقد ذكر  
 المفسرون أنَّ المقصود بأذى النبي (صلى  
 الله عليه وآله) أمران، (الأحدهما: قولهم زيد  
 بن محمد، حكاة النقاش. الثاني: أنَّ النبيَّ  
 صلى الله عليه وسلم قَسَمَ قِسْمًا فقال رجل  
 من الأنصار إنَّ هذه القسمة ما أريد بها وجه  
 الله فذُكِرَ ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وآله سلم  
 فغضب وقال: (رَجِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُودِيَ  
 بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا قَصِيرٍ) قاله أبو  
 وائل<sup>(١)</sup>(الماوردي: د.ت: ٤ / ٤٢٦). ومؤدى  
 القولين أنَّ الأذى لفظيٌّ وليس فعلياً، فضلاً  
 عن أنَّ ما ذكره المفسرون في المقصود بأذى  
 موسى (ع) يؤيد ذلك؛ لأنَّ كلَّ ما ذُكر هي  
 اتهامات باطلة لموسى (ع)، وقد يُستفاد منه  
 النهي العام عن كلِّ ما يؤذي النبيَّ الأكرم  
 (ص) من القول الذي يخلو من التأدب  
 والاحترام لشخصه الكريم، ولعلَّ الحادثة  
 الأولى أقرب لسبب نزول الآية، وقد اقتصر  
 كثير من المفسرين على ذكرها  
 حسب(الواحدي: ٣٠: ٥١٤٣٠: ينظر: ١٨/

### ثالثاً: القَوْلُ البليغُ:

قبل الولوج في بيان قصديّة اختيار (بليغاً) نعتاً للمصدر (قولاً)، لا بدّ من ذكر أنّ القول قد جاء منعوتاً بـ(غير) في موضعين<sup>(١)</sup>، وكلاهما أشارا إلى حادثة واحدة، تتعلق ببني إسرائيل وعنادهم، مع اختلاف في بعض ألفاظ الآيتين، لم نتوقف عندهما لأننا لم نجد في (غير) ما وجدناه في النعوت الأخرى؛ لذا أردنا عدم الخوض في الحديث عنهما ليتسع المقام لذكر النعوت الأخرى.

لقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يُعْرِضَ عن الذين نجم فيهم قرنُ النفاق ويعظّمهم، إذ قال سبحانه: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} النساء: ٦٣} وبعد وعظّم أمره أن يقول لهم قولاً بليغاً، وللوقوف على قصديّة اختيار هذا النعت لا بدّ من معرفة المراد بالقول أولاً، فالبلّغ هنا بمعنى النافذ المؤثر، الذي يبلغ فيه الإنسان كنه ما في قلبه، واختلف في المراد بذلك القول، فذهب الزمخشريّ إلى أنّ القول هنا يحتمل معاني ثلاثة، أولها أنّ ما انطوت عليه نفوسهم من الخبث، وقلوبهم من النفاق لا يناسبه إلّا القول الذي (يُعْتَمُونَ بِهِ اغْتِمَاماً، وَيَسْتَشْعِرُونَ مِنْهُ الْخَوْفَ اسْتِشْعَاراً، وَهُوَ النَّوْعُ الْقَاتِلُ وَالْإِسْتِئْصَالُ إِنْ نَجَمَ مِنْهُم

وهنا نكتة لطيفة، ولفتة تربوية في منتهى الدقة، حقيقٌ بنا الوقوف عندها، إذ جعل جزاء القول السديد صلاح الأعمال وغفران الذنوب، إذ عَقَبَ بقوله: { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } فلا يخفى ما للخوض في الحديث الباطل، والإشاعات الكاذبة من مشاكل اجتماعية كبيرة قد تعصف بالمجتمع، وتقوّض عرى أوامر الود والوثام بين أفرادها، وما يتركه من جراح لا تتدمل في النفوس، قد لا ينتهي أثرها وألمها عند الأفراد المباشرين، بل يتجاوز إلى كل من له صلة رحم وقرى بهم، فجعل جزاء القول العدل عظيماً؛ ليبين لنا عظمة وخطورة ما ينتج عن القول الباطل ورمي الناس به، لذا يتوجب علينا مراقبة الله في حفظ أسننتنا، وتسديد أقوالنا، ولعلّ تشبيه أمير المؤمنين عليه السلام للسان بالسبع في قوله: (اللِّسَانُ سَبْعٌ إِنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقْرٌ) (نهج البلاغة: ٢٠١٠م: ٤/٤٤١)، تشبيه غاية في الدقة، فاللسان إن أُطِيقَ له العنان افترس مَنْ حَوْلَهُ، وانفلات اللسان آفة اجتماعية لا بدّ من محاربتها والتصدي لها.

مما تقدم يمكن القول إنّ معرفة قصديّة اختيار النعت موصلة إلى معرفة الكثير من المعاني التي يتضمّنها النصّ ولا يدل عليها ظاهره، فضلاً عن أثره في ترجيح القول الأقرب لمعنى النصّ الكريم.

(١) البقرة: ٥٩، والأعراف: ١٦٢.

انطوت سريرته على المكر والنفاق والخديعة، وهو القول الذي يبلغ مكان خوفه، فلا يُجدي معه نفعاً إلا قول التهديد والوعيد، إلا أن هذا المعنى لا يلائم ما اشتهر من سيرة الحبيب المصطفى في دعوته إلى الإسلام. أما المعنى الثاني وإن كان تأثيره فيهم لا يمكن أن يخفى على ذي لب إلا أن إصلاح أنفسهم لن يكون عن قناعة وقبول، بل سيكون خوفاً من افتضاح أمرهم وسرعان ما سيعودون إلى سالف نفاقهم بزوال سبب الافتضاح المتمثل بوجود شخص النبي الأكرم (ص) بين ظهرائهم، فضلاً عن تعارضه مع الامر بالوعظ، والإعراض عنهم، فالوعظ هو تنكير بفعل الخير والإقلاع عن الشر. وما تقدم يجعلنا نرجح المعنى الأخير لما عُرف عن سيرته العطرة في كتم عناد المنافقين، والستر عليهم، فضلاً عن أن الوعظ بالسر بعيداً عن نية الفضح يجعل تأثير المنصوح أشد وأقوى، ويبلغ من أعماق نفسه ما يجعله يقبل الدعوة عن قناعة ورضاء، وهذا ما يريده الباري عزوجل، وهو القائل سبحانه لا إكراه في الدين، فالنصح وعلى لسان سيد النصح وأميره يكون أشد تأثيراً وأكثر بلوغاً وهو ما يناسب نعت ذلك القول بـ(البليغ)، لذا قالوا: ((والقول البليغ: ما يبلغ تمام المقصود)) (النسفي: ٢٠١٩م: ٥ / ٨٧).

النَّفَاقُ وَأُطْلِعَ قَرْنَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَا فِي نَفُوسِهِمْ مِنَ الدَّغْلِ وَالنَّفَاقِ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا هَذِهِ الْمَكَافَةِ إِلَّا لِإِظْهَارِكُمُ الْإِيمَانَ وَإِسْرَارِكُمُ الْكُفْرَ وَإِضْمَارِهِ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ مَا تَكْشِفُونَ بِهِ غَطَاءَكُمْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا السَّيْفُ)) (الزمخشري: ١٩٩٨م: ١ / ٥٢٧). والمعنى الثاني: ((قُلْ لَهُمْ فِي مَعْنَى أَنْفُسِهِمُ الْخَبِيئَةَ وَقُلُوبِهِمُ الْمَطُويَّةَ عَلَى النَّفَاقِ قَوْلًا بَلِيغًا، وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ إِبْطَائُهُ. فَأَصْلِحُوا أَنْفُسَكُمْ وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ وَدَاوُواهَا مِنْ مَرَضِ النَّفَاقِ)) (الزمخشري: ١٩٩٨م: ١ / ٥٢٧). ثم يذكر معنى ثالثاً يحتمله هذا القول مفاده ((قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ - خَالِيًا بِهِمْ، لَيْسَ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ، مُسَارًا لَهُمْ بِالنَّصِيحَةِ، لِأَنَّهَا فِي السِّرِّ أَنْجَعُ، وَفِي الْإِمْحَاضِ أَدْخَلُ - قَوْلًا بَلِيغًا يَبْلُغُ مِنْهُمْ وَيُؤَثِّرُ فِيهِمْ)) (الزمخشري: ١٩٩٨م: ١ / ٥٢٧). ولعل هذه المعاني الثلاث ما عليه أغلب علماء التفسير.

إنَّ تعيين المعنى المراد من القول يقتضي عدم إغفال نوع المتكلم والمخاطب وسياق الحديث بنوعيه المقالي والحالي، فهذه العناصر لها دور جوهري في تعيين المراد من القول، فضلاً عن معرفة قصدية اختيار النعت (بليغاً)، فأَيُّ الأقوال يمكنه بلوغ صميم قلوبهم يكون هو المعنى الأقرب لمراد الله تعالى، فمعنى التهديد بالقتل مناسب لمن

الأرض، فَمَا سَنَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَرَّكَ حَتَّى يُسْرَى عَنْهُ<sup>(١)</sup> (القرطبي: ١٩٦٤م: ١٩ / ٣٨-٣٩). وكلّ تلك المعاني المذكورة يحتملها النصّ، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى خصوصية مهمة في الخطاب القرآني لا توجد في لغة الخطاب البشريّ، ذلك أنّ النعت قد لا تكون وظيفته التقييد كما هو معروف عند أرباب اللغة، بل تكون وظيفته الاطلاق وإضفاء دلالات متعددة على النصّ لم يكن يحتملها قبل وجوده، والدلالات المذكورة خير شاهد على ذلك.

وقد يكون وجود النعت مشيراً إلى معاني أخرى تتوارى خلف معنى النصّ الظاهر، لا يمكن معرفتها إلا بفضل تدبر وإجالة فكر، وتخطّي تخوم الآية المدروسة، مع مراعاة أطراف الخطاب، والظروف المحيطة به، وهذا ما يمكن أن نتلمسه من استعمال النعت (تقبيل)، لا سيما إذا وُجِّهَتْ عنايتنا إلى شخص المخاطب، ولوحظ سياق الآيات الذي وردت فيه الآية الكريمة، فالآيات التي سبقتها تشير إلى أسس بناء الذات الانسانية، وتربية النفس، وتنمية الاستعداد النفسي والفكريّ، والسمو بالروح، بواسطة برنامج عباديّ يكون وقته الليل الذي تهفو فيه النفس إلى الدعة والراحة؛ لأنّ تلقي هذا القول التقبيل يقتضي استعدادات من المخاطب وقابليات كبيرة، وإمكانات تلقي غير

إنّ ما تقدّم يعطي صورة واضحة عن أثر معرفة قصدية اختيار النعت في الدلالة على المعنى غير الظاهر للآية المباركة، وفي ترجيح معنى على معنى آخر.

#### رابعاً: القولُ الثقيلُ:

نُعتَ القولُ بـ(الثقيل) في سورة المزل في قوله سبحانه: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} المزل: ٥} وهو خطاب للنبي الأكرم (ص)، وقد أجمع أغلب المفسرين على أنّ المراد بالقول هو القرآن الكريم، إلّا أنّهم اختلفوا في سبب نعته بالثقيل، وقد أوردَ القرطبيُّ أغلب تلك الآراء إذ قال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ قَوْلٌ ثَقِيلٌ يَنْقُلُ الْعَمَلُ بِشَرَائِعِهِ. قَالَ قَتَادَةُ: ثَقِيلٌ وَاللَّهُ فَرَانُضُهُ وَحُدُودُهُ. مُجَاهِدٌ: حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ. الْحَسَنُ: الْعَمَلُ بِهِ. أَبُو الْعَالِيَةِ: ثَقِيلًا بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ثَقِيلًا عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ. وَقِيلَ: عَلَى الْكُفَّارِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ ... السُّدِّيُّ: ثَقِيلٌ بِمَعْنَى كَرِيمٍ، مَا حُوذُ مِنْ قَوْلِهِمْ: فَلَا تَنْقِيلُ عَلَيَّ، أَيْ يَكْرُمُ عَلَيَّ. الْفَرَاءُ: ثَقِيلًا رَزِينًا لَيْسَ بِالْخَفِيفِ السَّفْسَافِ لِأَنَّهُ كَلَامٌ رَبِّنًا. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: ثَقِيلًا لَا يَحْمَلُهُ إِلَّا قَلْبٌ مُؤَيَّدٌ بِالتَّوْفِيقِ، وَنَفْسٌ مُزَيَّنَةٌ بِالتَّوَجِيدِ. ... وَقِيلَ: هُوَ الْقُرْآنُ نَفْسُهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أُوجِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جَرَانَهَا - يَعْنِي صَدْرَهَا - عَلَى

قاله بعض المفسرين بأنَّ الضمير المتصل في (إِنَّهُ) في آية الإسراء: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} يحتمل أن يكون راجعاً إلى العبد لا إلى الربِّ سبحانه، (كَمَا نَقَلَ أَبُو الْبَقَاءِ عَنْ بَعْضِهِمْ، قَالَ: إِنَّهُ السَّمِيعُ لِكَلَامِنَا، وَالْبَصِيرُ لِدَانِنَا. وَأَمَّا تَوْسِيطُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ فَلِلإِسْعَارِ بِاخْتِصَاصِهِ بِهِذِهِ الْكِرَامَةِ وَحَدَهُ) (الطبيبي: ٢٠١٣م: ٩/ ٢٣٦).

#### خامساً: القَوْلُ الْكَرِيمُ:

نُعِتَ الْقَوْلُ بِ(كَرِيمًا) فِي مَوْرِدِ الْأَمْرِ بِالْقَوْلِ مَعَ الْأَبْوِينِ حِينَ يَبْلُغَانِ الْكِبَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَفَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمَّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } [الإسراء ٢٣]. واختلف في المقصود بالكريم، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى قوله تعالى: { وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } [الإسراء : ٢٣] قال: ((إِنْ ضَرَبْتَكَ فَقُلْ لَهُمَا: عَفَرَ اللَّهُ لَكُمَا، فَذَلِكَ مِنْكَ قَوْلٌ كَرِيمٌ)) (دستغيب: ٢٠٠٦م: ١/ ١٤١) وقال الواحدي: ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ لَيْنًا لَطِيفًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيحٍ: أَحْسَنَ مَا تَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ. وَقَالَ عَمْرٌ (رَضَ): أَي لَا تَمْتَنِعُ مِنْ شَيْءٍ يُرِيدَانَهُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: لَا تُسَمِّهُمَا وَلَا تُكَنَّهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا: يَا أَبَتَاهُ وَيَا أُمَّاهُ. وَقَالَ أَبُو الْهَدَّاجِ التُّجَيْبِيُّ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، فَقُلْتُ:

اعتيادية، لا يتسنى لأيٍّ أحد امتلاكها، وهذه إشارة إلى عظمة الشخصية التي تتلقى ذلك القول، فهذا القول لا يتلقاه إلا من كان بناؤه النفسي والروحي قد وصل إلى مرحلة تتناسب مع عظمة ذلك القول، وقد قطع مراقي الطاعة والعبودية، ما جعله مؤهلاً لتلك المسؤولية العظيمة، ولأنَّ ذلك المقام، وَمَنْ غَيْرِ شَخْصِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَلْقَى ذَلِكَ الْقَوْلِ؟ وَلَعَلْنَا نَتَلَمَّسُ هَذَا الْمَعْنَى فِي كَلَامِ الطَّبْرَسِيِّ إِذْ قَالَ: ((وَقِيلَ: تَقِيلاً لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا قَلْبٌ مُؤَيَّدٌ بِالتَّوْفِيقِ وَنَفْسٌ مُؤَيَّدَةٌ بِالتَّوْحِيدِ)) (الطبرسي: ٢٠٠٦م: ١٠/ ١٦٠). وفي هذا المقام لا بُدَّ من استدعاء كلام صاحب التفسير الكاشف إذ قال: ((وَمَنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ أَخْلَاقِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ بِخَاصَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ أَفْسَدَ الْعُصُورِ وَأَكْثَرَهَا فَسَاداً وَطُغْيَاناً؟ وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا تَغَلَّبَ عَلَى جَمِيعِ الصَّعَابِ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ، أَمَّا السَّرُّ فِي ذَلِكَ فَيَكْمُنُ فِي شَخْصِيَّةِ مُحَمَّدٍ وَفُوتِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَفِي صَبْرِهِ الْعَجِيبِ عَلَى تَحْمُلِ الْأَدَى فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِ، فَكَانَ يَزْدَادُ صَبْرًا وَحُلْمًا كُلَّمَا زَادَ الطُّغْيَانُ فِي أَذَاهُ)) (مغنية: ٢٠٠٩م: ٧/ ٤٤٥). وهذا يجعلنا ندرك المعنى الذي أراده (صلى الله عليه وآله) بقوله: ((يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت)) (الحلي: ١٩٥٠م: ١٢٥). وبعد ذلك لا غرابة فيما

قول، فعلى الأبناء أن لا يعتقدوا أن ما يقدموه لأبائهم عند الكبر هو ما يريده الباري (عزوجل) بل عليهم أن يجتهدوا في خدمتهم، وأن يسعوا إلى ما يرضيهم ويطيب نفوسهم، وأن يبقى الشعور بالتقصير اتجاههم يخالفهم في الأحياء كلها، لذا نجد تنوع الأقوال واختلافها في تفسير معنى القول الكريم، وهنا تتجلى تلك العظمة في دقة اختيار ألفاظ الخطاب القرآني الشريف، وأن كل لفظ في موضعه، إذ لا يناسب نعت القول مع الوالدين إلا لفظ الكريم، رفعاً لقدرهما، وتقديساً لمنزلتهما، وإلهاباً وتهيجاً لهم المتلقين لرعاية حق الأبوة والأمومة فيهما.

#### سادساً: القول الميسور:

أمر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن يقول قولاً ميسوراً في سياق الرد على المحتاجين من ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حين لا يملك شيئاً يعطيه في قوله تعالى: {وَأَمَّا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا} الاسراء: ٢٨} وهذا الأمر يعده المفسرون من الأحكام العامة الموجهة إلى المسلمين كافة، وإن كان موجهاً للرسول (ص)، فالآيات الكريمة التي سبقتها اشتملت على أحكام كثيرة ابتدأت بإيتاء ذي القربى حقهم والمساكين وابن السبيل، ونهت عن التبذير، ثم أمرت بأن يقول لهؤلاء المذكورين قولاً ميسوراً إن لم يكن

أصلحك الله، كل ما ذكر الله في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} فَمَا هُوَ؟ قَالَ: قَوْلُ الْعَبْدِ الْمُذْنِبِ لِلْسَيِّدِ الْفَطِّ الْغَلِيظِ ((الواحدي: ١٤٣٠هـ: ٣٠٦/١٣). وقيل: ((خاطبهما بقول رقيق لطيف حسن جميل بعيد عن اللغو القبيح يكون فيه كرامة لهما ويدل على كرامة المقول له على القائل وقيل: معناه قل لهما قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ عن سعيد بن المسيب {وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} أي: وبالغ في التواضع والخضوع لهما قولاً وفعلاً براً بهما وشفقةً عليهما)) (الطبرسي: ٢٠٠٦م: ٦/ ٢٣٧).

وهذه المعاني يحتملها النص المبارك جميعها، إلا أن التمعن في قصد اختيار لفظة (كريم) دون غيرها يكشف لنا مغاليق الآية، ويأخذ بأبوابنا نحو معاني أخرى لا نعرف إلا بالتدبير وإجالة الفكر، ومراعاة سياق الآية المباركة. فالكريم في اللغة: ((الكريم من صفات الله تعالى وأسمائه، وهو الكثير الخير، وقيل: الجواد، وقيل: المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وقيل: هو الجامع لأنواع الخير والفضائل والشرف)) (الزبيدي: ١٩٦٥م: ٣٣/ ٣٤٧).

فدلالة الكريم على العطاء غير المحدود الذي لا ينفد، إشارة دقيقة إلى أن العطاء للوالدين لا يُحد بشيء، ولا يمكن تعيينه بفعل أو

روعه بالقول ((اللَّيْنُ الْحَسَنُ الْمَقْبُولُ عِنْدَهُمْ، شِبْهُ الْمَقْبُولِ بِالْمَيْسُورِ فِي قَبُولِ النَّفْسِ إِيَّاهُ لِأَنَّ غَيْرَ الْمَقْبُولِ عَسِيرٌ. أَمَرَ اللَّهُ بِإِرْفَاقِ عَدَمِ الإِعْطَاءِ لِعَدَمِ الْمَوْجِدَةِ بِقَوْلِ لَيْنٍ حَسَنٍ بِالِاعْتِدَارِ وَالْوَعْدِ عِنْدَ الْمَوْجِدَةِ، لِئَلَّا يُحْمَلَ الإِعْرَاضُ عَلَى قَلَّةِ الإِكْتِرَافِ وَالشُّحِّ)) (ابن عاشور: ١٩٨٤م: ١٥ / ٨٣).

وفي الآية الكريمة إشارة لطيفة لمعنى آخر احتمله التركيب بفعل وجود النعت (ميسورا) في ذيل الآية، وهو تربية المجتمع على أن ردّ الجواب من الأدب الذي يوصي به الله تعالى بوساطة مخاطبة النبي الأكرم (ص)، ولا بُدَّ أن يكون ذلك الجواب سهلاً لينا جميلاً لا يثقل سماعه، وقد أحسن الطاهر بن عاشور في إشارته إلى هذا المعنى بقوله: ((وَيَعْدِلُهُ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ إِذَا سَأَلَهُ أَحَدٌ مَا لَا وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِ يُعْرِضُ عَنْهُ حَيَاءً فَنَبَّهَهُ اللَّهُ إِلَى أَدَبٍ أَكْمَلَ مِنَ الَّذِي تَعَهَّدَهُ مِنْ قَبْلُ وَيَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ تَعْلِيمٌ لِسَائِرِ الْأُمَّةِ)) (ابن عاشور: ١٩٨٤م: ١٥ / ٨٢).

سابعا: القَوْلُ الْعَظِيمُ:

وصف الله عز وجل قولَ المشركين في جعل الملائكة بنات له جلَّ وعلا بأنه عظيم في قوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} (الإسراء: ٤٠) ولعلَّ سياق الآية كاشف عن سبب اختيار العظيم نعتاً لقولهم المزعوم؛

يملك ما يعطيه لهم، وهنا يشير المفسرون إلى أن المقصود بـ(الميسور) (فيه تأويلان: أحدهما: معناه إذا أعرضت عمن سألك ممن تقدّم ذكره لتعذره عندك ابتغاء رحمة من ربك ترجوها} أي انتظارا للرزق منه {فقل لهم قولا ميسورا} أي عدّهم خيرا ورد عليهم رداً جميلاً، وهذا قول الحسن ومجاهد. الثاني: معناه إذا أعرضت عمن سألك حذراً أن يُنفقه في معصية، فمنعته ابتغاء رحمة له فقل لهم قولا ميسورا، أي لينا سهلاً، وهذا قول ابن زيد)) (الماوردي: د.ت: ٣ / ٢٣٩). وأغلب المفسرين يذهب إلى المعنى الأول، وما يعنينا في هذا المقام معرفة قصدية اختيار النعت (ميسورا) للقول دون غيره، والمعاني التي يمنحها هذا النعت للتركيب الذي ذُيل به، ولمعرفة قصد الاختيار لا بُدَّ من التعرّيج على معنى اليسر في اللغة، جاء في القاموس ((اليسر، بالضم ويضمّتين، واليسار واليسارة والميسرة، مُتَلَثِّةُ السِّينِ: السُّهُولَةُ، وَالغَيْ. وَأَيْسَرَ إِيسَارًا وَيُسْرًا: صَارَ ذَا غَيْ، فَهُوَ مُوسِرٌ)) (الفيروزآبادي: ٢٠٠٥م:

٤٩٩). ودلالة اليسر على السعة والغنى يناسب ما اشتملت عليه الآيات من الإعطاء والبذل في الأموال للمحتاجين الذين مرّ ذكرهم، فضلاً عن كونها بقبال لفظة العسر، فالقاصد لطلب المعونة يعيش حالة من الشدة والعسرة، ولا بُدَّ أن يُراعى شعوره، ويُهدأ من

الله تعالى، لذا لا نجد ما يناسب قولهم من نعت إلا لفظة العظيم.

والمتدبر لسياق الآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية المباركة، يدرك أن تذييلها بلفظة العظيم فيه إشارة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهر التركيب، فتأكيد الآيات السابقة على توخي الدقة والتزام العلم، فضلاً عن نهي الانسان عن العادات القبيحة وغير المقبولة إتماماً لما يحكم به العقل، ووصف تلك النواهي بالحكمة، والنهي عن الاشرار بالله تعالى، ثم الانتقال إلى ذم تلك المعتقدات الجاهلية التي تنسب البنات لله تعالى، هو بيان عظم خطر تلك المعتقدات، وما يترتب على تلك المعتقدات من آثام عظيمة، حتى قرنت بالنهي عن الشرك، فاخترت صفة العظيم لذلك القول؛ ليكون التحذير شديداً للمتقين، ولتعظيم الذات الإلهية في أنفسهم، وتأكيداً على ضرورة تنزيهاها عما لا يليق بها، فيحرصون على الابتعاد عن نسبة أي شيء لله تعالى، تعظيماً لمقامه المبارك، لأن ذلك من مظاهر الجهل والبعد عن التعقل المأمور به.

#### ثامناً: القول اللين:

أمر الله تعالى نبيه موسى وأخاه هارون أن يقولوا لفرعون في دعوتها إليه قولاً ليناً في قوله عز من قائل: { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ

لأنهم كانوا يعتقدون بأن الملائكة بنات الله، وهذا الاعتقاد يعدّ انحرافاً جسيماً وكبيراً، لأنه ينسب لله تعالى ما لا ينبغي أن يُنسب إليه، وهذا انتقاص عظيم لحضرتة المقدسة، وظلم كبير لمقامه المبارك، وإهانة لمقام الملائكة المقربين، فإضافة الأولاد من خواص الأجسام، والله تبارك وتعالى لا يُحدُّ بوصف، ولا يُعدُّ بحدٍّ، ولا يورث بأين، فضلاً عن تفضيلهم لأنفسهم عليه سبحانه، إذ كانوا لا يقبلون بنسبة البنات إليهم، ويعدونها عاراً وشناراً، وكانت البنات توادُّ حياً، ومع ذلك يقبلون بأن ينسبونها لله تعالى، وهذا تعدٍ آخر على مقام الله تعالى، قال الطبرسي (هذا خطاب لمن جعل الملائكة بنات الله تعالى ومعناه أخلصكم الله سبحانه بالبين وخصكم بهم واتخذ لنفسه الإناث وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه واختصكم بالأرفع وجعل لنفسه الأدون. تقول أصفيت فلاناً بالشيء إذا أثرته به {إنكم لتقولون قولاً عظيماً} أي: كبيراً في الإثم واستحقاق العقوبة حيث أضفتهم إلى الله سبحانه ما لم ترضوا لأنفسكم به، وجعلتم الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم الإناث)) (الطبرسي):

٢٠٠٦م: ٦/ ٢٥٢). ومن هنا يتبين أن جسامته ما يقترفونه من إثم لأنه مرتبط بالذات الإلهية، وكلما عظمت مكانة المظلوم عظمت المظلومية، فكيف الأمر متعلق بذات

فالمخاطب المستهدف هو فرعون، والعارف بتلك الشخصية وغلظتها وجبروتها يُدرك صعوبة المهمة التي أرسل فيها موسى وهارون عليهما السلام، لاسيما وأن دعوتهما ستبدأ به قبل أي أحد، فأمر أن يكون قولهما ليّنا لما في ذلك من التأثير في الإجابة، والقدرة على استدعاء المخاطب، واستنزاله من عتوه؛ لأنّ القول اللين يرقق القلوب، ويخفف من جفوتها وإنكارها، ويهدم الحواجز النفسية بين الداعي ومتلقي الدعوة، فيكون مستعداً لقبول الدعوة، ومصغياً لسماع النصيحة، وهذا ما يلائم تلك الشخصية المتغترسة؛ وقد أشار الرازي إلى هذا المعنى بقوله: ((إِنَّ مِنْ عَادَةِ الْجَبَابِرَةِ إِذَا غَلَطَ لَهُمْ فِي الْوَعْظِ أَنْ يَزِدَادُوا عُنُوًّا وَتَكْبَرًا، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْبُعْتَةِ حُصُولُ النَّفْعِ لَا حُصُولُ زِيَادَةِ الضَّرْرِ فَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّفْقِ)) (الرازي: ١٤٢٠هـ: ٢٢ / ٥٢). لذا نجد أنّ المعاني التي أشار إليها المفسرون كلها تنتظم في تحقيق تلك الغاية، وهذا ما يجعلنا ندهش من دقة اختيار نعت القول في هذه الآية.

وفي النصّ إشارة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهره، أضفاها وجود النعت ليّنا، أولها الإشارة إلى سعة رحمة الله تعالى وعطفه على عباده، وعنايته بهدايتهم وإبعادهم عن طريق الغواية والضلال، فمع تغطرس فرعون، وادعائه الربوبية من دون الله،

أَوْخَشِي {طه: ٤٤} {وختلف المفسرون في المراد بالقول اللين، فقد ذكر الطبري ((أَنَّ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ الَّذِي أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ يَقُولَاهُ لَهُ، هُوَ أَنْ يُكْنِيَاهُ)) (الطبري: ٢٠٠١م: ١٦ / ٧٤). وقيل إنَّ ((مَعْنَاهُ: ذَارِيَاهُ بِالرَّفْقِ، وَارْفِقًا مَعَهُ)) (السمعاني: ١٤١٨هـ: ٣ / ٣٣٢). ونقل البيهقي قولاً آخر نسبة للسدي ((أَنَّ مُوسَى أَنَاهُ وَعَوَدَهُ عَلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ شَبَابًا لَا يُهْرَمُ، وَمُلْكًا لَا يُنْزَعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ لَذَّةُ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمُنْكَحِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ، وَإِذَا مَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَكَانَ لَا يَقْطَعُ أَمْرًا دُونَ هَامَانَ، وَكَانَ غَائِبًا فَلَمَّا قَدِمَ أَخْبَرَهُ بِالَّذِي دَعَاهُ إِلَيْهِ مُوسَى، وَقَالَ أَرَدْتُ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ هَامَانُ: كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ عَقْلًا وَرَأْيًا، أَنْتَ رَبٌّ، تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَرْبُوبًا؟ وَأَنْتَ تُعْبِدُ تُرِيدُ أَنْ تُعْبَدَ؟ فَقَلَبَهُ عَنْ رَأْيِهِ)) (البيهقي: ١٩٩٧م: ٥ / ٢٧٥). وقيل إنَّ قوله تعالى: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} هو القول اللين. (البيضاوي: ١٤١٨هـ: ينظر: ٤ / ٢٨).

إنّ ذكر الآراء الواردة في معنى القول اللين سردت لنصل بوساطتها إلى غايتنا بمعرفة قصدية اختيار هذا النعت وإثاره على النعوت الأخرى، ولعل الإحاطة بأطراف الخطاب تكشف لنا بعض غوامض الآية الكريمة، وتفتح بعضاً من مغاليقها،

ولطائفه الدقيقة، ويفوت الكثير من المعاني المضمرة التي يحتملها النصّ.

#### نتائج البحث:

١- أثبت البحث أنّ معرفة قصدية اختيار الألفاظ ومنها (النعوت) مُوصِلة إلى معرفة الكثير من المعاني التي يتضمنها النصّ ولا يدلّ عليها ظاهره، فضلاً عن أثره في ترجيح القول الأقرب لمعنى النصّ الكريم.

٢- أظهرت الدراسة أنّ للنعت في الخطاب القرآنيّ خصوصيةً لا توجد في لغة التخاطب الشائعة، إذ إنّ وجوده يضيف على النصّ دلالات لم يكن يتضمنها لولا وجوده فيه، ولو رُفِعَ من النصّ لاختفت معه تلك المعاني التي أضفاها، وهو خلاف ما اشتهر عليه في النظام اللغويّ من أنّ وظيفة النعت هي التقييد المعنى وتحديد.

٣- إنّ استعمال النعت (معروفاً) دون غيره لكونه النعت الأكثر ملاءمةً لمضامين الآيات التي ذلت به، والعامل المشترك بين جميع الآيات مع اختلاف موضوعاتها أنّ القول المعروف فيه معالجات لمشكلات اجتماعية ونفسية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وفضلاً عن كشفه لدلالات أخرى أشار إليها النصّ منها الحفاظ على الآداب الاجتماعية التي تناسب الأعراف الحميدة السائدة.

ومجاهرته بالعداء لله تعالى، إلا أنّ تجليات رحمة الله تعالى بعباده ظهرت في أنّ يأمر رسوله بأن يرفقا بالقول مع فرعون طمعاً بهدأيته، ورغبةً بإبعاده عن العاقبة السيئة، لذا استشهد الطبرسي بقول (يحيى بن معاذ: هذا رفك بمن يدعي الربوبية فكيف رفك بمن يدعي العبودية)<sup>(الطبرسي: ٢٠٠٦م: ٢٤/٧)</sup>. والثاني هو الدلالة على أنّ الدعوة إلى الله لا تكون عن طريق العنف والتخويف، بل اللين والإطماع، وكذا الحال بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا بُدّ أنّ يكون فيه الترغيب قبل التهيب. أمّا المعنى الثالث ففي طيات هذا القول تعظيم لحق تربية الأبوين، وهو ما نبّه إليه الرازي حين قال: ((إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ رَبَّاهُ فَرَعَوْنَ فَأَمَرَهُ أَنْ يُخَاطِبَهُ بِالرَّفْقِ رِعَايَةً لِتِلْكَ الْحُقُوقِ وَهَذَا تَنْبِيهُ عَلَى نَهَايَةِ تَعْظِيمِ حَقِّ الْأَبَوَيْنِ))<sup>(الرازي: ٥١٤٢٠: ٥٢/٢٢)</sup>. وبذلك يتضح لنا القيمة الدلالية للنعت (لينا)، والدور الذي اضطلع به لإضفاء دلالات جديدة على النصّ لم يكن يتضمنها لولا وجوده في تراكيبه.

مما تقدم يظهر جلياً أهمية تتبع قصدية اختيار الألفاظ في الخطاب القرآنيّ ضمن حقل دلاليّ معين، فدراسة مقاصد الاختيار في عموم الخطاب يغفل الكثير من درره

٥- رسمت بعض نعوت القول الطريق  
السليم للتعامل مع الآخرين مع اختلاف  
أجناسهم، فبينت للأبناء كيفية التعامل مع  
آبائهم، والمصلحين والأميرين بالمعروف  
الطريقة المثلى لدعوة الناس وهدايتهم، فضلا  
عن بيان طريقة التعامل مع المحتاجين الذي  
تجبرهم الحاجة على السؤال واستدرار العطف  
وإن كان المسؤول لا يملك شيئا.

٤- إنَّ تعيين المخاطَب والاحاطة  
بشخصيته له أثر كبير في معرفة قصدية  
اختيار النعت، فضلا عن معرفة المعاني  
غير الظاهرة للنص، فالنعت (ثقيلا) عرفت  
قصدية اختياره بواسطة الامام بشخص  
المخاطَب، فضلا عن تلقف إشارة النص إلى  
عظمة تلك الشخصية عن طريق استعمال  
النعت (ثقيلا).

مِظَانُ الْبَحْثِ:

عائشة صالح احمد، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: ١، المجلد: ٣.

• بياني: ٢٠٠٣م: الظاهراتية وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية: عزالعرب الحكيم ، افريقيا الشرق، المغرب.

• البغوي: ١٩٩٧م: معالم التنزيل في تفسير القرآن: أبو محمد الحسين بن مسعود (٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية.

• البيضاوي: ١٤١٨هـ: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (٦٨٥هـ)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

• التهانوي: ١٩٩٦م: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، ط١، مكتبة ناشرون، بيروت - لبنان.

• حسن: د. ت: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة:

• ابن عادل: ١٩٩٨م: اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

• ابن عاشور: ١٩٨٤م: التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (١٣٩٣هـ)، دار التونسية للنشر - تونس.

• ابن فارس: ١٩٧٩م: معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت ٣٩٥هـ)، (د. ط)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، سوريا.

• ابن منظور: د.ت: لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ)، (د.ط)، دار صادر، بيروت- لبنان.

• الأندلسي: ١٤٢٠هـ: البحر المحيط في التفسير: محمد بن يوسف الشهير بابي حيان (٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، ط١، دار الفكر، بيروت - لبنان.

• بابصيل: ٢٠١٩م: البعد القصدي لتداولية أفعال الكلام في الخطاب القرآني:

- عباس ، ط٣، دار المعارف، القاهرة - مصر.
- **الحلي:** ١٩٥٠م: مختصر بصائر الدرجات: للشيخ الجليل عزالدين الحسن بن سليمان ، من علماء القرن التاسع الهجري، ط١، مطبوعات المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف-العراق.
- **الحويزي:** ١٤١٢هـ: تفسير نور الثقلين: العلامة الشيخ علي بن جمعة (١١١٢هـ)، تصحيح وتعليق الحاج السيد هاشم الرسولاتي، ط٤، المطبعة العلمية، قم - إيران.
- **الخطابي:** ١٩٧٦م: بيان إعجاز القرآن: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف (ت ٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف، القاهرة - مصر.
- **دستغيب:** ٢٠٠٦م: الذنوب الكبيرة: السيد عبد الحسين، ترجمة صدر الدين القبانجي، ط٤، دار الاسلامية، بيروت - لبنان.
- **دولودال:** ١٩٩٤م: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري: جبرار بالتعاون جوويل ريطوري، تر: عبدالرحمن بوعلي، ط١، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط - المغرب.
- **الرازي:** ١٤٢٠هـ: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.
- **الزبيدي:** ١٩٦٥م: تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني، تح: جماعة من المختصين، إصدارات: وزارة الإرشاد والأبناء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.
- **الزمخشري:** ١٩٩٨م: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل: جاراالله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (٥٣٨هـ)، تح: الشيخ عادل احمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط١، مطبعة العبيكان، الرياض.
- **السمعاني:** ١٤١٨هـ: تفسير السمعاني: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي (٤٨٩هـ)، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، دار الوطن، الرياض - السعودية.
- **سيرل:** ٢٠٠٩م: القصدية بحث في فلسفة العقل: جون، ترجمة: أحمد الأنصاري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.

• الفيروزآبادي: ٢٠٠٥م: القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط٨، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

• القرطبي: ١٩٦٤م: الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية - القاهرة - مصر.

• الكاشاني: د.ت: تفسير الصافي: محمد محسن الملقب بالفيض (١٠٩١هـ)، صححه وقدم له الشيخ حسين الاعلمي، ط١، دار المرتضى للنشر، بيروت - لبنان.

• الماوردي: د.ت: النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (٤٥٠هـ)، تح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د.ط)، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

• مغنية: ٢٠٠٩م: التفسير الكاشف: محمد جواد، ط٤، دار الانوار، بيروت - لبنان.

• الشهري: ٢٠٠٤م: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر، ط١، دار الكتب الجديدة، بيروت - لبنان.

• الشيرازي: د.ت: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل مع تهذيب جديد: الشيخ ناصر مكارم، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان.

• الطبرسي: ٢٠٠٦م: مجمع البيان في تفسير القرآن: أمين الإسلام ابي علي الفضل بن الحسن (٥٤٨هـ)، ط١، دار المرتضى، بيروت - لبنان.

• الطبري: ٢٠٠١م: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)، تح: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر.

• الطيبي: ٢٠١٣م: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهو حاشية الطيبي على الكشاف: للإمام شرف الدين الحسين بن عبدالله (ت٧٤٣هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف د.محمد عبدالرحيم، ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات، دبي - الامارات.

• العسكري: د.ت: الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (٣٩٥هـ)، حققه وعلق

والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٣٠هـ -  
٢٠١٠م.

• **الواحدِي:** ١٤٣٠هـ: **التفسير البسيط:**  
لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد  
(٤٦٨)، تح: د. محمد بن صالح بن عبدالله  
الفوزان، ط١، منشورات جامعة الإمام محمد  
بن سعود الإسلامية، الرياض - السعودية.

• **مقبول:** ٢٠١٤م: **في تداوليات القصد:**  
إدريس، مجلة جامعة النجاح للأبحاث  
(العلوم الإنسانية)، المجلد: ٢٨، العدد: ٥.

• **النسفي:** ٢٠١٩ م: **التيسير في**  
**التفسير:** نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد  
الحنفي (٥٣٧ هـ)، تح: ماهر أديب حبوش  
وآخرون، ط١، دار اللباب للدراسات وتحقيق  
التراث، أسطنبول - تركيا.

• **نهج البلاغة:** للإمام علي بن أبي طالب  
(عليه السلام)، شرح الشيخ محمد عبده،  
ط١، منشورات الفجر للطباعة والنشر